۸۳۳

۱۶۶۴۰

مجلّه	مجلة المجمع العلمی العراقی
تاریخ نشر :	۱۳۷۴ هـ ق
شماره	جزء دوم از جلد سوم
شماره مسلسل	
محلّ نشر	بغداد
زبان	عربی
نویسنده	جواد علی
تعداد صفحات	۲۷۰ - ۲۹۴
موضوع	لهجة القرآن الکریم
سرفصلها	قراءات القرآن
کیفیّت	
ملاحظات	

٢٧٠ — ٢٩٤
سال ١٣٧٤ هـ ق
جزء ٢
مجلد ٣

لهجة القرآن الكريم

نزل القرآن الكريم منجماً « بلسان عربي مبين » (١). ولكن العرب كانت ولا تزال تتكلم بلهجات ، فبأية لهجة من لهجاتها نزل القرآن الكريم ؟

أما القرآن الكريم ، فلم يحدد اللهجة التي نزل بها ، ولم يشر اليها . وكلمتا « عربي » و « عربياً » الواردتان في سورة « النحل » و « الشعراء » و « فصلت » و « يوسف » و « الرعد » و « طه » و « الزمر » و « الشورى » و « الزخرف » و « الأحقاف » (٢) بحسب مواقع الكلمتين من الإعراب ، هما كلتان عامّتان لا تفيدان تخصيصاً ولا تعييناً للهجة واحدة معينة من اللهجات . ولذلك كان لابد للمفسرين من التعرض للهجة التي اختص بنزولها الوحي ، وايراد ما ذهب اليه العلماء من آراء في هذا الباب ، وسرد ما ورد في ذلك من أحاديث وأخبار وروايات .

وقد تطرق « الطبري » في مقدمة تفسيره (٣) الى هذا الموضوع بعد أن تعرض لرأي من زعم أن في القرآن كلماً أعجمياً ، وأن فيه من كل لسان شيئاً ، فقال : « قال أبو جعفر : قد دللنا على صحة القول بما فيه الكفاية لمن وفق لفهمه ، على أن الله جل ثناؤه أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من ألسن سائر أجناس الأمم ، وعلى فساد قول من زعم أن منه ما ليس بلسان العرب ولغاتها . فنقول الآن : اذا كان ذلك صحيحاً في الدلالة عليه ، فبأي ألسن العرب أنزل ؟ أبألسن جميعها أم بألسن بعضها ؟ اذ كانت العرب وإن جمع جميعها اسم أنهم عرب ، فهم

---

(١) « وهذا لسان عربي مبين » . النحل ١٦ ، ١٠٣ ، الشعراء ٢٦ ، ١٩٥ ، فصلت ٤١ ، ٤٤ ، يوسف ١٢ ، ٢ ، الرعد ١٣ ، ٣٧ ، طه ٢٠ ، ١١٣ ، الزمر ، ٣٩ ، ٢٨ ، فصلت ٤١ ، ٣ ، الشورى ٤٢ ، ٧ ، الزخرف ٤٣ ، ٣ ، الأحقاف ٤٦ ، ١٢ .

(٢) محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص ٤٥٦) ، القاهرة (١٣٦٤ هـ) .

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن : طبعة المطبعة الأميرية ببولاق . القاهرة ١٣٢٣ هـ . وسيكون رمزه في الحواشي كلمة « جامع » .

مختلفو الألسن بالبيان ، متباينو المنطق والكلام . واذ كان ذلك كذلك ، وكان الله جلّ ذكره قد أخبر عباده أنه قد جعل القرآن عربياً ، وأنه أنزل بلسان عربي مبين ، ثم كان ظاهره محتملاً خصوصاً وعموماً ، لم يكن لنا السبيل الى العلم بما عنى الله تعالى ذكره من خصوصه وعمومه إلّا ببيان من جعل اليه بيان القرآن ، وهو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . فاذا كان ذلك كذلك ، وكانت الأخبار قد تظاهرت عنه (صلى الله عليه وسلم) بما حدثنا به خلّاد بن أسلم ، قال : حدثنا أنس بن عياض عن أبي حازم عن أبي سلمة ، قال : لا أعلمه إلّا عن أبي هريرة ، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف ، فالمراء في القرآن كفرٌ ، ثلاثَ مرات . فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردّوه الى عالمه ».

واستمر الطبري بعد ذلك في تعداد الطرق التي ورد فيها هذا الحديث : حديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، ورواية بعض الأخبار الواردة في حدوث اختلاف بين الصحابة في حفظ بعض الآيات وقراءتها [1]. ثم خلص بعد هذا السرد الى نتيجةٍ ، هي أن القرآن « نزل بألسن بعض العرب دون ألسن جميعها ، وأن قراءة المسلمين اليوم ومصاحفهم التي بين أظهرهم هي ببعض الألسن التي نزل بها القرآن دون جميعها [2] » ، فلم يجزم بتعيين اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم .

وحديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، حديثٌ معروف مشهور ، يرد في كتب التفاسير وفي كتب المصاحف والقراءات . وقد ورد بطرق متعددة ، وبأوجه متعددة كذلك . وهذه الطرق والأوجه ، وإن اختلفت في سرد متن الحديث وفي ضبط عباراته ، قد اتفقت في الفكرة ، وخلاصتها نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف . ويقصدون بالحرف وجهاً من أوجه الألسنة ، أي لهجة من اللهجات [3].

أما رجال سند هذا الحديث ، فعديدون ، وفي حال بعضهم كابن الكلبي وأبي صالح مغمز [4]. وهم جميعاً يرجعون سندهم الى جماعة من الصحابة ، هم نهاية سلسلة السند ، قالوا : إنهم سمعوا

(١) جامع (١/٩ وما بعدها) . (٢) جامع (١/٢٥) .
(٣) جامع (١/٩ وما بعدها) . (٤) جامع (١/٢٣) .

الحديث من الرسول ، ويعنون بهم : عُمَرَ بنَ الخطّاب ، وعثمان بن عفّان ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وأُبَيّ بن كعب ، وأنساً ، وحُذَيْفة بن اليمان ، وزيد بن أرقم ، وسمرة بن جندب ، وسليمان بن صرد ، وعبد الرحمان بن عوف ، وعمرو بن أبي سلمة ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأبا بكرة ، وأبا جهم ، وأبا سعيد الخُدْري ، وأبا طلحة الأنصاري ، وأبا هُرَيْرَة ، وأبا أيوب ، وجملتهم واحد وعشرون صحابياً على بعض الروايات (١) .

وقد ذكر الرواة عدة أسباب في تعليل الغرض الذي من أجله صدر هذا الحديث من الرسول ، فهم يقولون : إن الرسول أدرك الصعوبة التي سيلاقيها الصحابة إن نزل القرآن بحرف واحد لما هم عليه من لهجات متعددة وألسنة متباينة ، فرجا من الله التخفيف عليهم بانزاله بلهجات تخفف عنهم ذلك العناء ، فاستجاب الله له ذلك ، وأمر بنزوله بسبعة أحرف . ويذكرون عدة أحاديث وردت في هذا المعنى ، منها : حديثُ « إن ربي أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت اليه أنْ هوِّنْ على أمتي ، فأرسل الي أن اقرأه على حرفين ، فرددت اليه أنْ هوِّنْ على أمتي ، فأرسل إليّ أن أقرأه على سبعة أحرف » ، وحديثُ « أقرأني جبريل على حرف ، فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدني ، حتى انتهى الى سبعة أحرف » (٢) .

والذي نفهمه من هذين الحديثين ومن أحاديث أخرى في المعنى أن نزول القرآن لم يكن في الأصل بلهجة واحدة ، وانما كان بعدّة لهجات .

ثم هم يروون جملة حوادث ترى اختلاف الصحابة في الحفظ ، كالذي ذكروه حكايةً على لسان زيد بن أرقم من أنه قال : « جاء رجل الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : أقرأني عبيد الله بن مسعود سورة أقرأنيها زيد وأقرأنيها أُبَيّ بن كعب ، فاختلفت قراءتهم ، فبقراءة أيهم آخذ ؟ قال : فسكت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . قال : وعليٌّ الى جنبه ، فقال عليّ : ليقرأ كل انسان كما عَلِمَ ، كلٌّ حسن جميل . وكالذي ذكروه على لسان عمر بن الخطّاب أنه قال : « سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يُقرئنيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فكدت

(١) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن (ص ٧٨) . (٢) الاتقان (١/٧٨) .

أساوره فى الصلاة ، فتصبرت حتى سلّم . فلما سلّم ، لببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرؤها ؟ قال : أقرأنيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . فقلت : كذبت ، فوالله إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لهو أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها . فانطلقت به أقوده الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقلت : يارسول الله ، إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وأنت أقرأتني سورة الفرقان ! قال : فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أرسله يا عمر . اقرأ يا هشام . فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرؤها . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : هكذا أنزلت . ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إقرأ يا عمر . فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : هكذا أنزلت . ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرؤوا ما تيسر منها » .

وهم يروون أحاديث أخرى بهذا المآل تظهر حدوث خلاف بين الصحابة فى حفظ آي القرآن الكريم ، وعلم الرسول بذلك ، وتجويزه لكل واحد منهم قراءته على نحو ما سمعها منه [(١)] .

والحديث ، كما نرى ، حديث عام مطلق ، لم يحدد اللهجات المقصودة ، ولم يحصرها . وقد أضيفت اليه فى بعض الروايات زيادات هي فى الواقع شرح له وتفسير ، وزادت روايات أخرى فى نهايته زيادات حددت الأحرف السبعة وعينتها ، فصارت بهذه الزيادات معروفة معيّنة .

وورود هذا الحديث بطرق متعددة ، وبهذا الشكل من العموم والاطلاق أو التقييد والتحديد ، مما يلفت النظر اليه ، ولا سيما أنه يتعارض مع ما ورد صراحة فى بعض الأخبار والروايات من نزول القرآن بلهجة واحدة ، هي لهجة قريش . ولهذا بحث فيه العلماء بحثاً مستفيضاً ، وأبدوا آراءهم فيما جاء فيه ، وفيما جاء فى تلك الزيادات ، لخصها (السيوطي) فى نحو من أربعين رأياً [(٢)] ، ليس لأكثرها صلةٌ ما باللهجات . ولهذا لن أتعرض لها فى هذا البحث ، فالذي يهمنا منها فيه ما له صلة بلهجة القرآن الكريم ، وبسائر ألسنة القبائل من غير قريش .

وتنتهي سلسلة سند الحديث الذي عين اللهجات وحصرها بابن عبّاس فى الغالب . أما

(١) مجاز (١/٩ وما بعدها) . (٢) الاتقان (ص ٤٧) .

رواتها ، فهم : ابن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، وقتادة عن ابن عباس [١] . زعم أبو صالح أنه سمع ابن عباس يقول : نزل القرآن على سبعة أحرف [٢] ، خمسة منها لعجز هوازن ، واثنان منها لقريش وخزاعة [٣] . وزعم قتادة أنه سمع ابن عبّاس يقول : نزل القرآن بلسان قريش ولسان خزاعة ، وذلك أن الدار واحدة . يعني أن خزاعة كانوا جيران قريش ، فسهلت عليهم لغتهم [٤] .

والى هذه الأسانيد استند من قالوا بتحديد لهجات القرآن الكريم ، قال هؤلاء : إن للعرب ألسنة كثيرة ، هي كلها عربية ما فى ذلك شك ، ولكنها لم تكن متكافئة كلها فى الفصاحة والبلاغة .

ولما كان الرسول الذي نزل الوحي عليه من العرب ، وكان كتاب الله عربياً معجزاً ، وهذا الإعجاز لا يظهر إلا بنزوله بأفصح ما نطقت به العرب جميعاً ، وبأسلس لسان وبأجمله وقعاً فى الأفئدة ، نزل القرآن بخير لهجات العرب لهجةً ، هي لهجات العجز من هوازن ، وهي : سعد ابن بكر ، وخثعم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف ؛ وبلهجتي قريش وخزاعة [٥] ، وهي ستة بعد الجمع ، لا سبعة كما يظهر من كلام الرواية ، وجعلها بعض العلماء لهجات قريش وهُذَيل وتميم والأَزْد وربيعة وهَوازن وسعد بن بكر ، وجعلها آخرون لهجات هُذَيل وكِنانة وقيس وضَبّة وتَيم الرَّباب وأسد بن خُزَيمة وقريش [٦] .

والرواية عن ابن عباس من طريق أبي صالح وقتادة ، رواية ضعيفة فى نظر النقاد . وقد أطلق على سند ابن الكلبي [٧] عن أبي صالح [٨] عن ابن عبّاس « سلسلة الكذب » ،

(١) جامع (١/٢٣) ، الإتقان (١/٨١) .
(٢) « نزل القرآن على سبع لغات » الإتقان (١/٨١) .
(٣) جامع (١/٢٣) . (٤) جامع (١/٢٣) .
(٥) جامع (١/٢٣) ، الإتقان (١/٨١) . (٦) الإتقان (١/٨١) .
(٧) « قال أحمد بن حنبل : إنما كان صاحب سحر ونسب ، ما ظننت أن أحداً يحدث عنه » ، « وهشام لا يوثق به » ، ميزان الاعتدال (٣/٢٥٦) ، لسان الميزان (٦/١٩٦) .
(٨) أبو صالح باذام « باذان » ، « قال النسائي : باذام ليس بثقة » « وقال اسماعيل بن أبي خالد : كان أبو صالح يكذب . فما سألته عن شيء ، إلا فسره لي ..... وقال ابن معين : اذا روى عنه الكلبي ، فليس بشيء » . ميزان الاعتدال (١/١٣٧ وما بعدها) .

وتحرّج كثير من العلماء من الاستشهاد بالأحاديث الواردة من هذا الطريق . وللعلماء ، ولا سيما رجال الجرح والتعديل ، كلام فى ابن الكلبي وفى أبي صالح يخرجنا الدخول فيه من الاستمرار فى موضوعنا ، وهو فى كتب الرجال . وقد تحدثت عنه بالمناسبة فى بحث « موارد تأريخ الطبري » المنشور فى المجلدات السابقة من هذه المجلة .

أما « قتادة » ، فذكر الطبري عنه أنه لم يلق ابن عباس ، ولم يسمع منه [١] . فحديثه عن ابن عباس إذن مما لا يجوز الأخذ به . فروايته « نزل القرآن بلسان قريش ولسان خزاعة » ، رواية لا يعتمد عليها لهذا السبب . ولقتادة رواية أخرى بهذا المعنى نسبها الى أبي الأسود الدؤلي ، زعم أنه قال : « نزل القرآن بلسان الكعبين : كعب بن عمرو ، وكعب بن لُؤَيّ » . وقد علق « خالد بن سلمة » على هذا الكلام فقال : « ألا تعجب من هذا الأعمى يزعم أن القرآن نزل بلسان الكعبَيْن ؟ وإنما نزل بلسان قريش » . قال ذلك مخاطباً به « سعد بن ابراهيم » [٢] . وقد رمي قتادة بالتدليس وبالقول بالقدر [٣] . والقول بالقدر من الأمور التي تؤاخذ على الرواة فى نظر علماء الرجال .

وخلاصة ما يتبين من مراجعة حديث « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرؤوا ما تيسر منه » بجميع طرقه ، أنه ورد بطرق عديدة عن الصحابة الذين ذكرت أسماءهم ، وأنه جاء عاماً وبهذا المعنى فقط . أما تعيين اللهجات والتفسيرات الأخرى ، فهي ـ كما قلت ـ زيادات وشروح ليست من أصل المتن ، وإنما وردت من بعض الصحابة ، أو ممن روى عنهم ، وأكثرها مما لا علاقة له باللهجات ، وقد ذهبت مذاهب بعيدة لا علاقة لها البتة بما روي عن اختلاف الناس فى قراءة القرآن [٤] . وقد ألحق بعضها بالمتن ، فظهر كأنه منه ، كما أدخل بعضهم فى اللهجات المذكورة لهجة أهل اليمن [٥] دون أن يذكروا أية لهجة قصدوا ، مع أن لأهل اليمن لهجات عدة .

(١) جامع (١/٢٣) . (٢) جامع (١/٢٣) . (٣) ميزان الاعتدال (٢/٣٤٥) .
(٤) الإتقان (١/٨١ وما بعدها) ، النشر في القراءات العشر ، للحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري (١/١٩ وما بعدها) .
(٥) النشر (١/٢٤) .

أبيح للعرب أن يقرؤوه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم فى الألفاظ والإعراب ، ولم يكلف أحد منهم الانتقال من لغته الى لغة أخرى للمشقة ، ولما كان فيهم من الحميّة ، ولطلب تسهيل فهم المراد [١] . وهـذا الرأي هو أيضاً من الآراء الموفّقة بين الرأيين السابقين .

والواقع أننا اذا دققنا فى مواضع الاختلاف وفى تنوع الروايات ، لا نجد فيها ما يمكن أن ينطبق هـذا التعليل عليه ، فليس فى أعقد مواضع الاختلاف ما يمكن أن يقال عنه إنه شاقّ لا يستطيع رجال القبائل أن يتلفظوا به أو يفهموه ، حتى نقول إنه لهذا السبب أمر بالجواز .

وسند القائلين إن القرآن الكريم هو بلهجة قريش ، هو أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) من قريش ، وهو من مكة . فلا بد من نزوله بلهجة قومه ، ليكون حجة عليهم وإعجازاً لفصحائهم [٢] ، ويستشهدون على ذلك بالآية : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »[٣] . ولما كان قوم الرسول هم قريش ، كان نزول القرآن بلهجتهم ، أي بلهجة قوم الرسول [٤] .

ثم هم يذكرون أن قريشاً كانت أفصح القبائل ، وأبلغها ، وأصفاها لغة ؛ لأنها كانت تسمع القبائل التي كانت تحضر الموسم فى كل عام ، فتنتقي منها أعذب الألفاظ ، وتختار من كلامهم أجود الكلام وأصفاه ، « فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب » [٥] .

ثم إنها كانت بعيدة عن الأعاجم ، فصان بعدها عنهم لسانها من الفساد ، وحفظها من التأثر بأساليب العجم ، حتى إن سائر العرب على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم فى الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية [٦] .

---

(١) الإتقان (١/٨١) .
(٢) مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن (ص٦٣ وما بعدها) «طبعة مطبعة الاستقامة ١٩٥٢ » .
(٣) سورة ابراهيم : ٤ . (٤) الإتقان (١/٨١) .
(٥) الصاحبي : فقه اللغة (ص٢٣) ، « طبعة المؤيد سنة ١٩١٠ » . السيوطي : المزهر (١/٢١٠) ، غريب القرآن (١/١٠) ، الهلال ، السنة السادسة والعشرون ١٩١٧–١٩١٨ (ص ٤٣) .
(٦) مقدمة ابن خلدون ، الفصل الثامن والثلاثون من القسم السادس ، الهلال : السنة ٢٦ ، أكتوبر ١٩١٧ (١/٤٣) .

ثم هم يستشهدون بالأخبار الأخرى التي أشرت اليها ، من نزوله بلسان قريش .

وينسب خبر اختيار قريش لأعذب الألفاظ الى قتادة المتوفى سنة ١١٧ هـ ، قالوا : « وقال قتادة : كانت قريش تجتبي ، أي تختار ، أفضل لغات العرب حتى صار أفضل لغاتها لغتهم ، فنزل القرآن بها »(١) .

وقول الأخباريين هذا في صفاء لغة قريش وعذوبتها وفصاحتها مقبول ، لو لم يذكر الأخباريون أنفسهم أشياء تناقض ما قالوه وتفنده ، فقد قالوا : إن الخليفة عثمان بن عفان قال للرجال الذي تولوا كتابة القرآن : « اجعلوا المملي من هذيل ، والكاتب من ثقيف »(٢) ، وليست هذيل ولا ثقيف كما نعلم من قريش . وقالوا : انه كانت غمغمة في لهجة قريش ، والنمغمة من المآخذ التي أخذها علماء اللغة أنفسهم على اللغات(٣) . وقالوا باختلاف القرشيين أنفسهم في فهم كلم من القرآن ، وبرجوعهم الى غيرهم في فهمها(٤) . فلو كان القرآن الكريم بلهجة قريش ، لما تصور وقوع هذا الاختلاف في فهم الكلمات . وقالوا : إن العرب كانت تقر لقريش بالتقدم في كل شيء عليها إلا في الشعر ، فانها كانت لا تقر لها به ، حتى كان عمر بن أبي ربيعة ، فأقرت له الشعراء بالشعر أيضاً ولم تنازعها(٥) . وقالوا : إن قريشاً كانت أقل العرب شعراً في الجاهلية ، فاضطرها ذلك الى أن تكون أكثر العرب انتحالاً للشعر في الاسلام(٦) . ويؤيد هذا القول أننا نجد أكثر من ذكر الرواة أسماءهم وأشعارهم من الشعراء الجاهليين ، إنما هم من غير قريش .

وهناك اعتراض آخر على القائلين بأن لهجة القرآن الكريم هي لهجة قريش ، صيغته : لو كان القرآن الكريم بلهجة قريش ، فلمَ لجأ المفسرون ، وفي متقدمتهم ابن عباس ، الى الاستشهاد بالشعر ، وبكلام الأعراب في تفسير كلام الله ، ولم يكن أولئك الأعراب أو أولئك الشعراء

(١) لسان العرب (٢/٧٧) .
(٢) الصاحبي في فقه اللغة (ص ٢٨) . « مطبعة المؤيد سنة ١٩١٠ » .
(٣) تاج العروس (٩/٦) . (٤) جامع (١/٩ وما بعدها) .
(٥) الأغاني (١/٣٥) .
(٦) طبقات الشعراء (ص ١٠) ، طه حسين : في الأدب الجاهلي (ص ١٣٢) .

من رجال قريش ؟ ولمَ أتعبَ علماء اللغة أنفسهم ، فذهبوا الى البوادي يتَقَصَّوْنَ اللغة ، والى الأعراب يسألونهم عن الغريب والنادر وعن شعر الشعراء ، ولم يأخذوا من رجال قريش ومن شعاب مكة ، وأهل مكة أعلم بشعابها من غيرهم ؟ ولِمَ فضل علماء اللغة بعض اللهجات على سائر لهجات العرب فى الفصاحة ، فقال أبو عمرو بن العلاء مثلاً : أفصح العرب عاليا هوازن وسفلى تميم [1] ، وليس هؤلاء من قريش ؟ وفضل علماء آخرون لهجات هذيل وثقيف وجرم ونصر قعين على سائر اللهجات الأخرى فى الفصاحة [2] ، وعدّوا قبائل هوازن وتميم وأسد من أفصح القبائل ، ولذلك قصدوها للأخذ منها ، ومن هؤلاء : الخليل ، والكسائي ، والأزهري .

قال أبو عبيدة : وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر ؛ وذلك لقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : أنا أفصح العرب ، بَيْدَ أنّي من قريش وأنّي نشأت فى بني سعد بن بكر ، وكان مُسْتَرْضَعاً فيهم ، وهم أيضاً الذين يقول فيهم أبو عمرو بن العلاء : أفصحُ العرب عليا هوازن وسفلى تميم . [3] . ففضل بني سعد بن بكر على غيرهم فى اللهجة ، ولم يكن من ذكرنا ومن لم نذكر من القبائل التي قصدها العلماء للأخذ منها من قريش . لذلك أرى وجوب التحفظ كثيراً فى الأخذ بروايات الأخباريين ، وعدم التسليم بكل ما يروونه ، ولا سيما فى القضايا المهمة التي ترد فيها عدة روايات وفى المسائل التي تكون لها صلة بالعواطف والأهواء .

ثم إنّ ما رواه الأخباريون عن تخير قريش أحسن الكلم ، وأصفاه ، وعن فصاحتها وبلاغتها وحسن ذوقها وما شابه ذلك من كلام ، يمكن أن يكون كلاماً مقبولاً لو كان ما قالوه مقروناً بحجة ودليل ، ومشفوعاً بسند مكتوب أو إثبات لا يرتقي اليه الشك . ولكننا اذا راجعنا ما قالوه وفحصناه ، نجده يفتقر الى أهم شرط من شروط التسليم بصحة رأي ، ألا وهو الدليل ، فليس بين أيدي الرواة الذين تناقلوا تلك الأخبار أدلة وحجج تثبت ما قالوه .

نعم ، إنّ العلماء رووا تلك الأخبار وتناقلوها منذ مئين سنين ، وهي شائعة بينهم معروفة .

---

(١) المزهر (١/٢١١) ، الاتقان (ص ١٠٩) ، الرافعي : تأريخ آداب اللغة العربية (١/١٢٨) .
(٢) وسئل بعض العلماء : أي العرب أفصح ؟ فقال : « نصر قعين » ، اللسان (٧/٢٢٥) .
(٣) الرافعي : تأريخ آداب اللغة العربية (١/١٢٨) .

هذه حقيقة ليس الى تكرانها من سبيل ، ولكن ليس كل شائع مشهور هو صدق وحق وكلام مسلم به . وقد أنكر نقدة العلماء أخباراً عديدة مع أنها وردت بطرق متنوعة وبأسانيد متعددة ، بعد ما تبين لهم أن فى طرق سندها أو فى الروايات نفسها أموراً تستوجب المؤاخذة والرفض ، ولم يشفع لهـا عندهم أنها أخبار شائعة معروفة ، وأنها وردت بطرق متسلسلة عديدة .

وهناك اعتراض آخر على القائلين بتخير قريش الكلام في مواسم الحج ، صورته : لو كان ما ذكره أهل الأخبار حقاً ، فمن كان يقوم بمهمة الاختيار ؟ آلخاصّةُ من الناس ، أم سوادهم كلهم ؟ إن كان الخاصة ، وهو ما يجب أن يكون ، فمن منهم كان يقوم بهذه المهمة الصعبة : مهمة الانتقاء التي تتطلب أن يكون صاحبها أو أصحابها على مستوى عال في اللغة وفى العلم وفى الأدب وفى الذوق والحسّ ؟ وإن كان السواد ، فهل حدث فى التأريخ أنْ قام السواد بمهمة تنقية اللغة وتصفيتها وتنميتها وتهذيبها ؟ ان السواد على العكس فى العادة ، لا يتقيدون بقواعد اللغـة ولا بأصولها ، وإنما هم يحرفون فيهـا أو يضعون أو يأخذون من غير أبناء جنسهم ، وهذا لايعدّ تهذيباً للغة فى نظر علماء اللغات ، ولا ترقية للذوق العام . ثم إن هذا شيء عام يشمل كل الناس فى كل الأوقات ، لم يختص به قوم دون قوم .

واعتراض آخر وارد عليهم كذلك ، هو : لمَ أغفل الرواة الإشارة الى من كان يقوم بالاختيار والتهذيب والتحكم فى كلام الناس من رجال قريش ، مع أنهم أشاروا الى من كان يقوم بالتحكيم فى عكاظ ؟ وليست مهمة اختيـار الكلم وانتقائها فى مواسم الحج بأقل شأناً ومنزلة من مهمة التحكيم فى سوق عُكاظَ . ثم إنهم قالوا إن المحكمين فى عكاظ كانوا فى العادة من تميم ، فلمَ خصّوا تميماً بالتحكيم ، ولم يخصوا قريشاً بـه ، وهي أولى بذلك من تميم لما قالوه ؟ أليس في تخصيص تميم بهذا التحكيم ـ إن صحت روايات الأخباريين ـ ما يفيد تفوق تميم أو بعض رجالها مثلاً على غيرها بصناعة الكلام ؟ ثم إنّ لغة الخطابة والشعر عند الجاهليين هي اللغـة التي نزل بها الوحي نفسها ، وذلك كما يتبين من المحفوظ المروي والمدون فى الاسـلام . وحيث إن شعراء الجاهلية المنسوب هذا الشعر اليهم ، والمتكلمين المنسوب ذلك الكلام اليهم ، لم يكونوا كلهم من أهل مكة ، بل كانوا من مواضع متعددة من الجزيرة ، وقسم كبير منهم كان يعيش فى العراق أو فى

بلاد الشأم ، استنتج من ذلك أن هذه اللغة لم تكن لغة محلية خاصة ، إنما كانت لغة الشعر والخطابة في أكثر أنحاء الجزيرة وفي خارجها . وهذا الاستنتاج يضعنا أمام أسئلة ، منها : هل كانت هذه اللغة لغة الوحي الكريم والشعر والخطابة لغة الأدب عند أكثر العرب قبل الاسلام وعند ظهوره ؟ أو هل كانت لغة قريش ، ومن قريش انتشرت في سائر أنحاء الجزيرة بسبب الحج والمواسم والتجارات وما أشبه ذلك من عوامل ؟ ثم ان كانت هذه اللغة لغة قريش خاصة ، ففي أي وقت خرجت من أسوار قريش حتى صارت لغة الأدب عند العرب أجمعين ؟ وان كانت الأولى ، أي أنها لغة الأدب عند العرب ، فهل كانت لغة جماعة معينة ، توسعت حتى صارت لغة الأدب لأكثر العرب ؟ أو أنها لم تكن لهجة جماعة معينة ، إنما كانت لهجة قديمة كالأم تطورت حتى بلغت الشكل الذي بلغته عند نزول الوحي ؟

وأما احتجاجهم بكون الرسول من قريش ، فلا بد أن يكون الوحي بلغة قريش ، فإن العرب كلهم قوم الرسول ، ولم تخصص الآية القومية بالمعنى الضيق المحدود ، بدليل وصف لسان القرآن بأنه عربي ، واللسان العربي لسان عام يشمل لسان قريش ولسان غيرها من القبائل . ولو كان القرآن الكريم قد قصد بالقوم هنا قوم الرسول الذين بينهم حسب ، أي قريش وحدها ، لنعت القرآن بأنه نزل بلسان قرشي ، ليكون واضحاً مفهوماً عند الناس .

ويسوقنا البحث في موضوع لهجة القرآن الكريم الى التفكير في موضوع آخر له صلة وثيقة بهذا الموضوع ، بل هو في الواقع جزء منه ، هو : لغة الأدب عند الجاهليين ، وهل كانت للجاهليين لهجة خاصة يستعملونها في التعبير عن عواطفهم من شعر ونثر ؟ وهل كانت فوق سائر لهجاتهم المحلية أو لهجات القبائل المتعددة ؟ واذا كانت هنالك لهجة خاصة ، فلهجة من كانت تلك اللهجة ؟ وبأي موطن ولدت ؟ وهل كانت لهجة عامة مستعملة لدى جميع العرب ، أو كانت لهجة خاصة بالعرب الشماليين ، وأعني بذلك العرب الذين سكنوا خارج اليمن وحضرموت وعمان ؟ والاجابة عن هذه الأسئلة تؤدي حتماً الى الاجابة عن موضوع لهجة القرآن الكريم .

وقد عني عدد من المستشرقين بالاجابة عن أمثال هذه الأسئلة ، فكتب «نولدكه» (١) في

كتابه عن تأريخ القرآن ، فى موضوع القراءات واللهجات التي نزل بها القرآن الكريم [١] ، كما تطرق فى أثناء كلامه على الشعر الجاهلي الى موضوع لغة الأدب عند الجاهليين ، وخلاصة رأيه أن الفروق بين اللهجات فى الحجاز ونجد ومناطق البادية المتاخمة للفرات لم تكن كبيرة ، وأن اللهجة الفصحى بنيت على جميع هذه اللهجات [٢] . وذهب « غويدي » الى أن اللغة الفصحى هي مزيج من لهجات تكلم بها أهل نجد والمناطق المجاورة لها ، ولكنها لم تكن لهجة معينة [٣] . ورأى « نلينو » أن العربية الفصحى تولدت من إحدى اللهجات النجدية ، وتهذبت فى مملكة كندة وفى عصرها ، فأصبحت اللغة الأدبية السائدة . وعزا سبب ذلك الى وجود ملوك هذه المملكة وإغداقهم على الشعراء مما كان له وقع فى نفوسهم ، ثم الى توسع رقعة هذه المملكة التي ضمت أكثر قبائل معد ، وكان لها فضل توحيد تلك القبائل وجمع شتاتها [٤] ، فشاعت هذه اللهجة على رأيه فى منتصف القرن السادس الميلاد ، وخرجت خارج نجد ، وعمت معظم أنحاء الجزيرة ولا سيما القسم الجنوبي من الحجاز الذي فيه يثرب ومكة والطائف ، مع بقاء اللهجات العامية فى منطق الناس المعتاد ، وكان للمواسم المشهورة وللملوك الحيرة وغسان شأن لا ينكر فى هذا الانتشار السريع العجيب [٥] . وذهب « هارتمن Hartmann » و « فولرس Vollers » الى أن العربية الفصحى هي لهجة أعراب نجد واليمامة ، غير أن الشعراء أدخلوا عليها تغييرات متعددة [٦] . وذهب « لندبرك Landburg » الى أن الشعراء هم الذين وضعوا قواعد هذه اللهجة ، وعلى قواعدهم سار المتأخرون ، ومن شعرهم استخرجت القواعد ، ومن قصائدهم تلك استنبط العلماء أصول النحو .

ولم يعين « فيشر Fischer » اللهجة التي نبعت منها العربية الفصحى ، غير أنه رأى أنها لهجة خاصة [٧] . ولـ « بروكلن Brockelmann » و « ويتزشتاين Wetzstein » آراء فى

(١) Noldeke Geschichte des Korans , Zweite Auflage , Erste Teil. S. 42.
(٢) Noldeke , Beitrage , S , 1-14 , Semiti
(٣) Guidi , Misc. Ling. , Torino , 1901 , P. 323.
(٤) الهلال : السنة السادسة والعشرون ، أكتوبر ١٩١٧ م (ص ٤٧) .
(٥) المصدر نفسه (ص ٤٨) .
(٦) Vollers , Valkssprache , S. 184.
(٧) Fischer , in , ZDMG. , 662 , note 4 , Rabin P. 17.

نشوء هذه اللغة وفى تطورها ، ولكنها لم يتحدثا عن علاقتها ببقيه اللهجات [١] .

وقد استنبط المستشرقون آراءهم هذه من الروايات التي دوّنها العلماء عن الشعر واللغة واللهجات ، وهي مع اعتمادها عليها غير كافية فى نظري لإعطاء رأي علمي صحيح عن هذا الموضوع ، فما رواه العلماء إنما دوّن في الإسلام ، أي بعد استقرار اللغة وصيرورة لغة القرآن الكريم اللسان الرسمي لا للعرب وحدهم ، بل اللسان الرسمي لجميع المسلمين . ثم إن ما رووه يخص هذا اللسان فى الغالب . أما ما ذكروه عن الألسنة الأخرى ، فأكثره مما يتعلق باستعمال القبائل المفردات ، كذكر المترادفات للكلمة الواحدة ، والمترادفات هي فى الغالب كلمات لمسمى واحد تعددت لاستعمال قبيلة أو عدة قبائل مصطلحاً أو تعبيراً يختلف عن مصطلح قبيلة أخرى أو تعبيرها ، فحصل من هذا التعدد عدد من الكلمات لمسمى واحد لا غير . وأما الاختلاف فى نطق الكلمة بالفتح أو بالضم أو بالإمالة وأمثال ذلك ، أو في كيفية استعمال حروف الجر ، فانه وان كان ذا أهمية غير أنه لا تكفي مع ذلك لتكوين فكرة علمية صحيحة عن نشوء اللهجات وتطوّرها .

والطريقة المثلى لتكوين رأي علمي عن أمثال هذه الموضوعات ، تكون فى نظري بالرجوع الى الكتابات الأصلية المدونة بمختلف اللهجات ، لتُستَخرَجَ منها الفروق والمطابقات وقواعد الألسنة ، وليتمكن بواسطتها من الحكم على لغة التدوين فى المنطقة التي وجدت فيها والعصر الذي تنتسب اليه ، ثم بالرجوع الى المؤلفات المدونة فى قواعد اللهجات وضوابطها من نحو وصرف ، المنقولة عنها ليتمكن بها من الوقوف على أساس تلك الألسنة ومن المقارنة بينها وبين اللغة الفصحى : لغة القرآن الكريم .

أما الكتابات الجاهلية التي هي الأصل فى الاستشهاد ، فهي آلاف فى الزمن الحاضر ، وفى عدة لهجات ، هي : المعينية ، والسبئية ، والقتبانية ، والحضرمية ، والثمودية ، والصفوية ، واللحيانية ، وفى لهجة أخرى قريبة من العربية الفصحى ولكنها متأثرة بالإرمية ، وهي أقل اللهجات المذكورة عدداً ، اذ لا تتجاوز جملتها ستة كتابات . وكل النصوص الجاهلية هي من العربية الغربية والجنوبية ، خلا نصوص معدودة عثر عليها فى العربية الشرقية . وليس مردّ

(١) Rabin, P. 17

تلك الكثرة وهذه القلة الى علم أهل الغرب والجنوب بالكتابة وجهل أهل الشرق بها ، إنما هو اختلاف طبيعة الأمكنة . ففي الغرب والجنوب حجارة صلدة مضيافة كريمة أمينة فى حفظ ما سطر عليها ، وفى الشرق رمال وأتربة تنفر طبيعتها من الكتابة ولا تميل اليها ؛ لهذا لم يعثر فيها إلا على عدد قليل من الكتابات مدونة على أحجار مستوردة من أماكن بعيدة ، صعب على الرمال لفظها الى ظاهر الأرض ، فبقيت فيها الى أن استخرجها بحاثو شركات النفط وبعض السائحين .

والذي يخص موضوعنا مباشرة من هـــذه الكتابات ، هو القسم المدون منها فى القرن السادس للميلاد ، خاصة المدوّن منها قبيل ظهور الإسلام وحين نزول الوحي . أما القديم منها ، فهو مهم ولا شك من حيث دراسة تطور اللهجات العربية قبل الاسلام وتأريخ هـذا التطور . ولكنه لا يفيدنا فائدة مباشرة فى معرفة اللهجة التي كانت سائدة بين أكثر العرب عند ظهور الاسلام وتشخيصها . والقسم القديم منه ، وأعني به القسم المدون قبل القرن السادس للميلاد ، هو القسم الغالب . أما القسم المدون منه فى القرن السادس ، فهو مما كتب قبل الإسلام بسنين ، أي فى النصف الأول من القرن السادس ، وهو قليل معدود . وليس بين أيدينا حتى الآن نص مدون فى السنين المتصلة بالإسلام ، أو فى أيام نزول الوحي ، أي فى الحقبة المهمة بالنسبة الى موضوعنا ، لنتمكن بها من معرفة اللهجة التي كانت سائدة فى جزيرة العرب عند ظهور الاسلام .

ويؤسفنا أننا لا نملك حتى الآن مؤلفاً بالعربية كتب فى نحو اللهجات العربية الجاهلية أو اللهجات التي كانت مستعملة وفى أدبها حين ظهور الإسلام وفى صدر الاسلام . أما ما دوّنه بعض العلماء عن لهجات أهل اليمن ، كالهمداني ونشوان بن سعيد الحميري وأضرابهما ، أو من أخذا منهم وغرفا من مؤلفاتهم ، فأكثره مما يخص المفردات ، ثم إن غالبه هو من هذه اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم ، تصرف فيه أهل اليمن بعض التصرف ، فظن أولئك العلماء أنه من لغات اليمن القديمة . ولم أجد فيهم من تعرض لنحو تلك اللهجات وصرفها ، ولا لخصائصها التي تميزها عن اللهجات الأخرى ، وان كانوا قد تعرضوا للقلم المسند وأظهروا معرفة به[1] . وأما

(١) الاكليل (٨/١٢٢) ، الفهرست : في بحث الأقلام .

المتون الواردة فى « الإكليل » للهمداني ، وفى بعض المؤلفات الأخرى لنصوص عربية جاهلية ذكر أنها نقلت عن الأصل وأنها قراءات لها ، فهي نصوص لا يَسَعُ الخبير باللهجات العربية قبل الإسلام ، العارف بها ، أن يقول إنها نصوص مدونة بتلك اللهجات ، وإنها صور نقلت نقلاً صحيحاً عن الأصل ؛ ولذلك ليس لها حكم النصوص الجاهلية المنتهية الينا ، وان كانت ذات فائدة من ناحية أخرى ، من ناحية دراسة ما عرفه علماء التأريخ والآثار الاسلاميون عن تأريخ ما قبل الاسلام ، ودراسة بعض الكلمات التي تمكن أولئك العلماء من قراءة حروفها قراءة صحيحة[1] .

وأقرب هذه النصوص الى عربيتنا ـ وأعني بعربيتنا هذه العربية التي نكتب بها ونطلق عليها العربية الفصحى ، وهي عربية القرآن الكريم ـ النصوص التي أشرت اليها ، وأقدمها وأطولها نصّ حرّان الذي يعود عهده الى سنة ٣٢٨ م ، وقد عثر عليها كلها فى بلاد الشأم . وقد يدل وجودها في هذه الأرَضين على أن عربها كانوا يتكلمون أو يكتبون بلهجة قريبة من لهجة القرآن الكريم . ويلاحظ أن أقرب هذه الكتابات الى أيام ظهور الإسلام ، هي أقصرها . وهذا أمر مؤسف ، فقد حرمنا معرفةَ صلة لهجة تلك النصوص باللهجة القرآنية ، ومعرفةَ تطور تلك اللهجة منذ عثورنا على أول نص مدوّن بها الى أيام ظهور الإسلام ، ومعرفةَ خصائصها النحوية والصرفية وما تشترك فيه مع قواعد لهجة القرآن الكريم .

ويصعب فى الزمن الحاضر إعطاء رأي علمي مقنع عن مدى علاقة هذه اللهجة بلهجتنا ، ما لم تتوافر لدينا نصوص أخرى جديدة تزيد فى معارفنا عنها ، وما لم نتوسع فى البحث عن كتابات نأمل أن تكون مطمورة في بلاد الشأم وفي الحجاز وفى العراق ، ولا سيما الحيرة إذْ كانت المدرسة التي تعلم منها كتاب الحجاز القلم الذي دون به القرآن الكريم على ما يذكره أهل الأخبار[2] ، ونبغ فيها عدد كبير من العلماء النصارى قبل الاسلام ، وكانت فى كنائسها

(١) راجع النصوص المدونة في الإكليل ، وهي تؤيد هذا الرأي (٨/٢١ ، ٤٢ ، ٤٩ ومواضع أخرى) .
(٢) نهاية الأرب (٧/٣) ، المزهر (٢/٣٤٣) ، الفهرست (٤) ، عيون الأخبار (١/٤٣) ، المعارف (٢٧٣) ، ابن خلدون (٢/٦٠) تأريخ العرب قبل الاسلام (١/١٤ وما بعدها) .

ودياراتها وفي قصور ملوكها سجلات ودواوين فيها أخبار من ملك تلك المدينة وما قيل فيهم من شعر[١] .

والتنقيب في العراق وفي بادية الشام ونجد والحجاز ، من الأمور الضرورية اللازمة لمعرفة الصلات التي تصل بين لهجات عرب هذه الأرضين قبيل الاسلام وخاصة فى القرن السادس الميلادي ، لأنّ حكمنا على لغتهم مستمد فى الزمن الحاضر من الروايات والأخبار التي لا تستند الى كتابات جاهلية . وهذه المستندات مع ما لها من قيمة علمية لا تنكر ، ليست فى درجة الوثائق المأخوذة من المنابع الأصلية ، وهي الكتابات المدونة قبل الاسلام . ثم إن ما هو مدون إنما دوّن فى الاسلام ، وكانت لهجات هذه القبائل فى عهده قد تأثرت بلهجة القرآن الكريم تأثراً كبيراً .

. فلتكوين رأي علمي سليم عن اللهجات العربية قبل الإسلام وعند ظهوره ، لابد من دراسة الكتابات الجاهلية لاستنباط قواعدها وخصائصها وما تشترك وما تختلف فيه ، وتقسيمها الى مجموعات بحسب نتائج هذه الدراسات ، وفى ضوء هذه الدراسات نتمكن من تكوين رأي علمي مقبول صحيح .

وينطبق هذا الرأي على تثبيت لهجة القرآن الكريم وتعيينها كذلك ، فلا بد لمعرفة هذه اللهجة من معرفة لهجات القبائل العربية عند ظهور الاسلام ، ومعرفة لهجة أهل الحجاز ولا سيا أهل المدينتين اللتين نزل فيهما وما بينهما الوحي . وليست لدينا نصوص مكتوبة بأيدي أناس عاشوا قبيل الإسلام أو عند ظهور الاسلام .

أما الحديث الذي عين لهجات القرآن الكريم وأثبتها ، فقد أشرت الى الطرق التي ورد فيها ، وهي طرق غير مطمئنة لنقدة العلماء ، ففي بعض رواتها مَغْمَز ، وفى بعض رجالها أقوال

(١) « كنت أستخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من ولي منهم لآل كسرى وتأريخ نسبهم من كتبهم بالحيرة » ، الطبري (٢/٣٧) ، ابن جني : الخصائص (١/٣٩٣) ، تاج العروس (٢/٧٠) ، طبقات الشعراء (١٠) ، المزهر (٢/٤٧٤) ، تأريخ العرب قبل الإسلام (١/١٤) .

من جهة أنهم لم يلتقوا بابن عبّاس الذي ترفع رواية الحديث عن رسول الله اليه[1] . ثم لا بد لنا ولهم من معرفة تلك اللهجات لإبداء حكم عليها ، ولم يذكر العلماء من مميزاتها غير النزر اليسير .

ويوحي حديث : « أُنزل القرآن على سبعة أحرف » الى السامع أن القرآن الكريم كان قد أنزل على سبعة أوجه متباينات ، وأن فيه اختلافاً كما توحي ذلك بعض الأخبار التي تهوّل الأمر وتوسعه ، حتى تكاد توهمك أن الصحابة كانوا يحفظون ويقرؤون قراءين يختلف بعضها عن بعض . فقد ذُكر أن رجلين اختصما في آية من القرآن ، وكلٌّ يزعم أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أقرأه فتقارءا الى أُبَيّ ، فخالفهما أُبَيّ ، فتقارؤوا الى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقال : يا نبي الله ، اختلفنا في آيةٍ من القرآن ، وكلّنا يزعم أنك أقرأته . فقال لأحدهما : إقرأ . قال : فقرأ . فقال : أصبت . وقال للآخر : إقرأ . فقرأ خلاف ما قرأ صاحبه . فقال : أصبت . وقال لأُبَيّ : إقرأ . فقرأ ، فخالفهما . فقال : أصبت . قال أُبَيّ : فدخلني من الشك في أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما دخل فيّ من أمر الجاهلية . قال : فعرف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي في وجهي ، فرفع يده فضرب صدري ، وقال : استعذ بالله من الشيطان الرجيم . قال : ففِضْتُ عرقاً ، وكأني أنظر الى الله فَرَقاً ، وقال : إنه أتاني آت من ربي ، فقال : إنّ ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : ربّ ، خفّف عن أمتي . قال : ثم جاء ، فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلتُ : ربّ خفّفْ عن أمتي . قال : ثم جاء الثالثة ، فقال : إنّ ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : ربّ خففْ عن أمتي . قال : ثم جاءني الرابعة ، فقال : إنّ ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف ، ولك بكل ردّة مسألة ... الخ[2] .

ورُوي عن زيد بن وهب ، قال : أتيتُ أُبن مسعود أستقرئه آية من كتاب الله ، فأقرأنيها كذا وكذا . فقلت : إن عُمَرَ أقرأني كذا وكذا خلاف ما قرأها عبد الله . قال :

---

(١) جامع (١/٢٣) ، ابن سعد (٥/١٠٠) ، ياقوت : ارشاد (٥/٦٣ ، ٦٥) ، المذاهب الإسلامية (٧٤) .

(٢) جامع (١/١٤) .

فبكى حتى رأيت دموعه خلال الحصى[1]، ثم قال : إقرأها كما أقرأك عمر .فوالله لهي أبين من طريق السيلحين[1] .

ففي هذين الخبرين وفى الأخبار الأخرى التي ذكرتها والأخبار المروية عن الأسباب التي حملت المسلمين بعد وفاة الرسول ومنذ عهد أبي بكر الى عهد عثمان على جمع القرآن وتدوينه ما يفيد وقوع اختلاف فى القراءات على عهد الخلفاء فحمل الخليفة عثمان على وضع حدّ له خشية الفرقة ، فأمر بالقراءة على المصحف الذي تم الاتفاق عليه[2].

ومن هذه الوجهة ظهرت نظرية القراءات السبع ، القراءات المعتبرة المعتمدة عند القراء ، وهي ترجع الى أئمة ارتبطت بأسمائهم ، وعليها يقتصر فى القراءات . وهي بالطبع نتيجة تطور سابق لقراء سبقوا هؤلاء الأئمة الذين اعتمد عليهم فى القراءات[3] ، وعلى قراءاتهم يقرأ من يستحق لقب « مقرىء » أو « قارىء »[4] وان كانت هنالك روايات تزيد بعض الزيادات على هذه القراءات .

ولأجل تكوين فكرة علمية صحيحة عن هذه الأخبار وعن درجة سعة هذا الاختلاف ومقدارها وما يجب أن يقال فيها ، لا بد من نقد كل ما ورد في هذا الباب من حديث وروايات ، وغربلته غربلة دقيقة . وتكون أول هذه الغربلة فى نظري بنقد سلسلة رجال السند ، أي الرواة ، لمعرفة الروابط التي كانت تربط بينهم وصلة بعضهم ببعض وملاقاتهم ، وما قيل.وورد فيهم ؛ إذ نسبت أحاديث الى أشخاص قيل إنهم رووها عن أناس ثقات ، ثبت من النقد أن بعض رجال السند لم يلتقوا فى حياتهم بمن حدثوا عنهم كما فى حديث قتادة عن ابن عباس ، أو أنهم رووا ما رووه تسرعاً وبدون سند أو إجازة[5] لمجرد سماعهم برواية أولئك الأشخاص لتلك الروايات .

---

(١) ابن سعد (١/٢٧٠) Noldeke, Geschichte des qorans, I, S. 41

(٢) الإتقان (١/٩٨ وما بعدها) ، جامع (١/٢٠ وما بعدها) النشر (١/٥ وما بعدها) ، الرافعي : اعجاز القرآن (٣٠ وما بعدها) .

(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله (١٢١) ، الحافظ الدمشقي : النشر في القراءات العشر (١/٣١ وما بعدها) .

(٤) كولد زهير : المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن (ص ٣٧) .

(٥) جامع (١/٢٣) ، (٢٥/٧٢) ، المذاهب الإسلامية (٨١ وما بعدها) .

ثم إن هذا النقد لا يكفي وحده ، بل لا بد من نقد متن الحديث من حيث لغته وأسلوبه ومضمونه وروحه ، ومن حيث انطباق بعض الروايات على جوهر القرآن الكريم وما عرف عن الرسول . فبهذا النقد للمتن ، نتمكن من الحكم على إمكان صدور الحديث عن الرسول أو عدمه .

وبعد كل ما تقدم ، علينا حصر أمثلة الاختلاف التي ذكرها العلماء ، وضبط كل ما ورد في الأخبار من هذا القبيل ، لنتمكن من الحكم على مقدار ما اختلف فيه وسعته ودرجة موافقته لما جاء في ذلك الحديث وفي تلك الأخبار ، ثم دراسة هذه الكلمات التي قيل إنها تمثل لهجات قبائل وإنها حرف من هذه الأحرف السبعة المذكورة في الحديث .

ونحن اذا تعمقنا في درس مواضع الاختلاف ، وهي أهم ما يتصل بلهجة القرآن الكريم ، وسجلناها تسجيلاً دقيقاً شاملاً ، نجد أنها ليست في الواقع اختلافاً في أمور جوهرية تتعلق بالوحي ذاته ، وإنما هي في الغالب مسائل ظهرت بعد نزول الوحي من خاصيّة القلم الذي دوّن به القرآن الكريم . فرسم أكثر حروف هذا القلم متشابهة ، والميز بينها هو النقط ، وقد ظهر النقط بعد نزول الوحي بأمد . ثم إن هذا القلم كان خالياً في باديء أمره من الحركات ، وخلو الكلم من الحركات يحدث مشكلات عديدة في الضبط من حيث إخراج الكلمة ، أي كيفية النطق بها ، ومن حيث مواقع الكلام من الإعراب [1] .

كل هذه الأمور وأمور أخرى تعرض لها العلماء ، أحدثت في الغالب القسم الأعظم مما يعد اختلافاً في القراءات .

ويعود القسم الباقي من مواضع الاختلاف الى سبب أراه لا يتعلق أيضاً بمتن النص ، وإنما هو ، كما يتبين من الامعان في دراسته ومن تحليل الآيات المختلف فيها ، زيادات وتعليقات من ذهن الحفاظ والكتاب على ما أتصور ، لعدم وضوح المعنى لديهم ، لعلها كانت تفسيراً أو شرحاً لبعض الكلام دونت مع الأصل ، فظنت فيما بعد من الأصل . واثبات التفسير مع المتن ، جائز على بعض الروايات [2] .

(١) الهمداني : الإكليل (٨/١٢٢) ، المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن (ص ٤ وما بعدها) .

(٢) « جواز اثبات بعض التفسير على المصحف ، وان لم يعتقدوه قرآناً » المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن (١١) وما بعدها) ، الزرقاني على الموطأ (١/٢٥٥) .

ويعود قسم آخر منه الى استعمال كلمات قد تكون مخالفة لكلمة من حيث شكلها ، ولكنها متفقة معها فى معناها ، والى استعمال كلمات متباينة فى الشكل وفى المعنى . وهذا القسم هو ، ولا شك ، أهم أقسام الاختلاف ، واليه يجب أن توجه الدراسة .

هذه الأمور المذكورة ، تحصر جميع ما ورد من اختلاف فى كلمات أو آيات من القرآن الكريم . أما ما ذكره العلماء من الأوجه التفسيرية للحديث حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف ، ومن جعلها خمسة وثلاثين وجهاً أو سبعة أوجه أو أقل من ذلك أو أكثر[٢] ، فانها تفاسير متأخرة ، وأوجه نظر قيلت لإيجاد مخارج مسوّغة لتفسير هذا الحديث .

ويصعب فى هذا الموضع ذكر أمثلة لهذه الأمور ، فهي عديدة كثيرة ، ذكرت فى كتب المصاحف وفى كتب التفسير ، وأورد شواهد منها « كولد تزهير » فى كتابه عن « المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن » ، يمكن الاطلاع عليها فى الصورة العربية له المطبوعة بمصر[٣] . فمن أمثلة الاختلاف الحادث من الخط « تستكبرون » بالباء الموحدة و « تستكثرون » بالثاء المثلثة فى الآية : « ونادى أصحابُ الأعرافِ رجالاً يعرفونَهم بسيماهُمْ ، قالوا : ما أغنى عنكم جَمعُكُمْ وما كنتم تستكبرون »[٤] . و« بشراً » أو « نشراً » فى الآية : « وهو الذي يُرْسِلُ الرِّياحَ بشراً بين يدي رحمته »[٥] . وكلمة « إياه » فى الآية : « وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلا عن مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيّاهُ » ، إذْ وردت أيضاً « أباه » بالباء الموحدة[٦] . وأمثال ذلك مما كان سببه النقط .

وبعد ملاحظة ما تقدم ، وحصر كل ما ورد فى المصاحف وما قرأه القراء من قراءات ، نجد أن ما يختص منه باللهجات وباللغات قليل يمكن تعيينه ، ومعظمه مترادفات فى مثل : أرشدنا واهدنا ، والمهن والصوف ، وزقية وصيحة ، وهلم وتعال وأقبل ، وعجل وأسرع[٧] ، والظالم

(٢) النشر فى القراءات العشر (١/٢١ وما بعدها) ، الإتقان (١/٧٨ وما بعدها) ، القرطبي (١/١٦) ، الأزرقي (٤٣٦) ، Noldeke, I. S. 49. f.

(٣) اخراج علي حسن عبد القادر ، مطبعة العلوم ، القاهرة ، ١٩٤٤ م .

(٤) الأعراف : آية ٤٨ . (٥) الأعراف : آية ٥٧ . (٦) التوبة : آية ١١٤ .

(٧) النشر (١/٢٩ وما بعدها) ، القرطبي (١/١٦) ، اتقان (١/٧٩ وما بعدها) .

والفاجر ، وعتى وحتى [١] ، وأمثال ذلك . وهذه الأمثلة هي كلمات مختلفة لفظاً ، ولكنها فى معنى واحد . وهي كما ترى مفردات لا دخل لها فى قواعد اللهجات .

وأما الاختلاف فى الاظهـار والادغام والإشمام والتفخيم والترقيق والمد والقصر والإمالة والفتح والتحقيق والتسهيل والإبدال ، فهذا ليس من الاختلاف الذي يتنوع فيه اللفظ والمعنى ؛ لأن هذه الصفات المتنوعـة فى أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً [٢] ، وليس هو من قبيل الاختلاف المؤثر فى قواعد اللهجة ، إنما هو اختلاف في الصـور الظاهرة لمخارج حروف الـكلمات ، فلا يصح أن يعد فارقاً كبيراً يمكن أن يكون حداً يفصل بين اللهجات ، بحيث يصيّرها لغة من اللغات ، ثم إن بعضه يعود الى الخط ، وبعضه الى التجويد [٣] أي طريقة التلاوة والأداء .

وللحكم على أصل المترادفات ، تجب مراجعة سلسلة السند للوصول الى صحة تسلسل الأخبار من جهة ، والى معرفة راوي الخبر والقبيلة التي هو منها لمعرفة القراءة التي قرأها ، وهل هي من لهجة قبيلته ، أم هي مجرد كلمة من اللهجة التي نزل بها القرآن الـكريم نفسها ، تلقاها القارىء على الشـكل الذي رواها فى قراءته .

لقد أشار العلماء الى أمثلة من كلمات غير قرشية وردت فى القرآن الـكريم ، ذكروا أنهـا من لهجات أخرى ، ومنها : الأرائك ، ولا وَزَرَ ، ويفتنكم ، وأمثال ذلك رَجَعَ بعضُهم أصولها الى خمسين لهجة من لهجات القبـائل ، كما أشـاروا الى وجود كلمات معربة أخذت من لغات أعجمية مثل الرومية والفارسية والنبطية والحبشية والسريانية والعبرانية وأمثال ذلك [٤] ، وألفوا فى ذلك كتباً ، منها : كتاب لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي المتوفى سـنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م) واسمه « رسالة فى ما ورد فى القرآن من لغات القبائل » [٥] ، وكتاب لغات القرآن

---

(١) مباني (٩) ، Noldeke, I, 51. (٢) النشر (١/٢٦ وما بعدها) .

(٣) راجع بعض الأمثلة في (ص ٧) من كتاب المصاحف : للسجستاني « طبعـة آرثر جفري » ، القاهرة ١٩٣٦ .

(٤) الاتقان (١/٢٢٩ وما بعدها) .

(٥) طبع مع كتاب الديريني المسمى (التيسير في علم التفسير) في القاهرة سنة ١٣١٠ هـ . ومع تفسير الجلالين المطبوع في القاهرة كذلك سنة ١٣٥٦ هـ .

قواعد اللهجة العربية ، حتى أننا لا نستطيع فى هذه الحالة أن ندعي أن هذا الشعر هو بلهجة هذيل . وقد حرمنا هذا الصقلُ الوقوفَ على لهجات القبائل التي أخرجت أولئك الشعراء ومعرفةَ مؤثراتها في شعر أولئك الشعراء .

ومن أهم الأمثلة التى أوردها العلماء في قراءة ابن عباس مما له علاقة باللهجات ، قراءته كلمة « حتى » « عتّى » بالعين فى الآية : « ثمّ بدا لَهُمْ من بعدِ ما رَأَوا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حتّى حين » [1] . وقد ذكر المفسرون وعلماء اللغة أن هذه القراءة هي بلهجة هذيل [2] ، وأن « عتى » هي « حتى » عند هذه القبيلة ؛ ذلك لأن هذه القبيلة تستعمل حرف العين بدلاً من الحاء في لهجتها [3] . ولم يشر العلماء الى مواضع أخرى استعمل ابن مسعود فيها كلمة « عتى » فى موضع « حتى » الواردة فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، كما أننا لم نجد في كتب اللغة المتقدمة إشارة الى استبدال هذيل حرف العين بحرف الحاء . ونظرية « فحفحة هذيل » ، رأي متأخر لم يقرن بأدلة وأمثلة ، فهو رأي لا يمكن الأخذ به [4] . وأظن أن هذه القراءة المنسوبة الى ابن مسعود ، هي من القراءات المتولدة من حدوث اشتباه فى القراءة ، من جرّاء عدم حصول التمييز بين « العين » و « الحاء » في « حتى » . ووقوع الاشتباه بين الحرفين فى ابتداء الكلمات ، أمر ليس بصعب ، وإلا فلِمَ انفرد ابن مسعود فى هذا الوضع فقط ، باستعمال « عتى » ، ولم يستعملها فى المواضع الأخرى وهي كثيرة فى القرآن الكريم ؟

نعم ، لقد ورد فى رواياتٍ أن ابن مسعود قرأ « نحم » بدلاً من « نعم » فى القرآن الكريم [5] ، وأنه قرأ « بُحْثِرَ » عوضاً عن « بُعْثِرَ » [6] . وهذه الروايات تناقض الروايات السابقة التي تزعم أنه قرأ « عتى » فى موضع « حتى » فى الآية المذكورة ، اذ نجده فى هذه الروايات يقرأ « العين » حاءً ، أي عكس تلك القراءة المنسوبة اليه . ثم إن المفسرين وعلماء القراءات ، لم يشيروا الى قراءات أخرى له من هذا النوع قلب فيهما حرف العين حاءً مع تعدّد

(١) سورة يوسف ١٢ آية ٣٥ . (٢) البيضاوي (١/٤٦٠) ، ابن مالك : التسهيل (٥٧) .

(٣) المزهر (١/١٣٣) Rabin, P. 84. f. (٤) Rabin, P. 85.

(٥) المغني (٢/٢٥) .

(٦) « أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور » ، العاديات (١٠٠ ، ٩) .
Rabin, P. 85, Beck, in Orientalia, vol., XV, 182.

ورود حرف العين فى القرآن الكريم .

وهناك روايات تفيد أن أسداً وتميماً استعملوا حرف الحاء فى موضع العين فى بعض الحالات ، فقالوا « مَحَهُمْ » بدلاً من « مَعَهُمْ » و « أأحهد » فى موضع « أأعهد » [١] . ولكنها لم تشر الى أمثلة أخرى من هذا القبيل . وهذان المثالان لا يكفيان بالطبع لإعطاء حكم فى هذا الإبدال عند القبيلتين . ولكن هنالك رواية متأخرة لا نعرف مرجعها تفيد أن هذا الإبدال واقع فى لهجة سعد بن بكر ، وهي قبيلة تقع مواطنها فى شمال المدينة [٢] . ولكن ما صلة ابن مسعود بهذه القبيلة وهو من هذيل ؟ هل نفترض أنه أخذ قراءته تلك من أفواه رجال هذه القبيلة ؟ اذا أخذنا بهذا الظن ، وجب علينا اثبات ذلك بدليل ، وذكر أسماء الصحابة الذين أخذ ابن مسعود منهم قراءته . ويجب حينئذ رَجْعُ تلك القراءة الى أولئك الصحابة لا الى ابن مسعود . والواقع أننا لا نستطيع أبداً الاتيان بدليل ما يثبت استعمال هذيل حرف العين فى كلامها فى موضع الحاء وبالعكس .

ورأيي أن ما نسب الى ابن مسعود فى هذه القراءة أو القراءات الثلاثة ، سببه وهم وقع فيه مَنْ نسب تلك القراءة اليه ، وهو ناتج من كتابة المصحف المنسوب اليه . وإلا ، فلا يعقل أن يقتصر ابن مسعود على هذه القراءة أو القراءات التي هي ليست من لهجة أهل مكة ولا أهل يثرب ولا هذيل ، ثم يترك سائر المواضع . ولا يعقل كذلك تلفظ الرسول بهذه اللهجة الشاذة التي لا نعرف من كان يستعملها على وجه ثابت ، وقد نزل القرآن بأفصح اللهجات .

والى أمثال هذه القراءات الشواذ ، التي يجب نقدها وتمحيصها بعناية ، استند « كارل فولرس » فى نظريته القائلة بحدوث تغير فى نص القرآن الكريم . وهي نظرية لم يُقِرَّها عليه بعض كبار المستشرقين . ولو فحصت ودققت ، لتبين أنها بنيت على روايات لا تثبت أمام التمحيص ، أخذها لمجرد ورودها فى الكتب . ولكن ليس كل ما يرد فى الكتب بأمر مسلم به . وسأتحدث عنها فى الجزء الآتي من المجلة ، مع بقية الموضوع .

جواد علي

(١) Rabin, P, 85. (٢) المصدر نفسه .